٤ ـ أصحاب المعالي

(إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها)

« حديث شريف »

للأستاذ محمد محمود زيتون

ويكاد أحمد بن منير الطرابلسي يكون الطغرائي الثاني في مطالع معانيه :

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله ... في منزل فالحزم أن يترحلا

كالبدر لما أن تضاءل جد في ... طلب الكمال فحازه متنقلا

سفها لحلمك إن رضيت بمشرب ... رنق ورزق الله قد ملأ اللا

فارق ترق كالسيف سل فبان في ... متنيه ما أخفى القراب وأخملا

لا تحسبن ذهاب نفسك موتة ... ما الموت إلا أن تعيش مذللا

للفقر لا للفقر هبها إنما ... مغناك ما أغناك أن تتوسلا

لا ترض من دنياك ما أدناك من ... دنس وكن طيفا جلا ثم انجلى

أنا من إذا الدهر هم بخفضه ... سامته همته السماك الأعزلا

ولأبي العتاهية مثيل في التذرع بالزهد والتقوى التي هي أوضح السبل إلى جانب الحزم والجد والثبات والحركة ، ذلك هو الصفدي القائل :

الجد في الجد والحرمان في الكسل ... فانصب تصب عن قريب غاية الأمل

إن الفتى من يعاضي الحزم متصف ... وما تعود نقض القول والعمل

ولا يقيم بأرض طاب مسكنها ... حتى يقد أديم السهل والجبل

ومنها :

ولا يصد عن التقوى بصيرته ... لأنها للمعالي أوضح السبل

والبيان في نظر سهل بن هارون هو سبيل المعالي التي يفصح عنها اللسان يقول : « إن الله رفع درجة اللسان فوق جوارح الجسد ... فهو أداة يظهر بها البيان ... ومفصاح بمعالي الأمور ، ودليل على ما بطن في القلوب . . »

يجب أن تحتل التربية الدينية مكانها اللائق باعتبارها أساسا تنهض عليه الأخلاق القويمة التي لا تتم بدونها التربية الاجتماعية التي تساعد على نجاح عملية التربية

وتنظر رسالة المربي إلى التربية الدينية نظرتها إلى التربية الخلقية . وبهذه النظرة يمكن التحرر من ديكتاتورية التربية الدينية التي قيدت حرية التفكير الإنساني بسلاسل من حديد كما حدث في المجتمع الصليبي خلال العصور الوسطى

وكما تقودنا التربية الاجتماعية إلى الاهتمام بالتربية الخلقية والتربية الدينية فهي كذلك تقودنا أيضا إلى الاهتمام بالتربية البدنية . ذلك أن العلاقة بين الجسم والعقل وتأثير كل منهما في الآخر من القوة بحيث يؤدي إهمال أحدهما إلى إضعاف الآخر . ولما كان غرضنا من الاهتمام بالتربية الاجتماعية إيجاد التوافق بين أفراد المجتمع حتى يسير وينمو ، فذلك يجب أن نعتني بأفراد ذلك المجتمع لا من الناحية العلمية أو الخلقية أو الدينية فحسب ، بل وكذلك من الناحية الصحية حتى تكون سلامة الأبدان مدعاة إلى حفظ العقول والتمسك بالأخلاق ، وحتى يتم التوافق والانسجام بين قوى الفرد ونوازعه المختلفة فيؤدي ذلك إلى توافق أفراد المجتمع وانسجامهم . وهكذا نجد للتربية البدنية أهميتها التي لا تقل عن التربية العقلية والخلقية والدينية فكلها تشترك في نمو الإنسان وتقدمه

وما دمنا نريد ترقية المجتمع ونموه فيجب تربية جميع أفراده بلا استثناء أي إلى إقرار مبدإ تكافؤ الفرص وتوطيد العدل الاجتماعي ، وسيؤدي ذلك إلى أن تصبح المواهب والميول الطبيعية هي الأساس الذي يحدد مستقبل الأفراد

بمراعاة ذلك كله يتم التوافق الاجتماعي بين الأفراد ، وتزول من المجتمع مظاهر التعارض والشذوذ ، ويحل الانسجام والوئام ، محل التنافر والخصام ، ويسير المجتمع في رقيه وتقدمه إلى الأمام .

كمال السيد درويش

ليسانس الآداب بامتياز — دبلوم معهد التربية العالي
مدرس بالرمل الثانوية

وفى هذا يقول الشاعر :

رأيت العز فى أدب وعقل ... وفى الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن ... إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيبا أن تراه ... له وجـــه وليس له لسان

ونفطويه يجمع بين لسان العرب ودين الإسلام :

سبيلى لسان كان يعرب لفظه ... فياليته فى موقف العرض يسلم
وما ينفع الأعراب إن لم يكن تقى ... وما ضر ذا التقوى لسان معجم

وسلم الناس إلى المجد فى العصر الحديث هو العلم كما يقول شوقى :

كل يوم آيـــة دلت على ... أن للعـــلم القوى والغلبا
لو بنوا فوق السها مملكة ... لوجدت العلم فيهـــا الطنبا
سلم الناس إلى المجـــد إذا ... طلبوا سلمـــه والسببا

أما أبو تمام فيرى أن المالى من غير شعر كالأرض لا معالم فيهـا :

وإن الملا ما لم ير الشعر بينها ... لكالأرض فضلا ليس فيها معالم
وما هو إلا القول يسرى فيهتدى ... له غرر فى أرجـــه ومواسم

ويرتفع المتنبى بالشعر فوق الجبال ، ويطير به عبر البحار إذ يقـول :

قواف إذا سرن عن مقولى ... وثبن الجبال، وخضن البحارا

ويقول عن شعره أيضا :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك ... سار ، فهو الشمس والدنيا فلك

ومن طلب المالى فليشمر لها وليسهر الليالى ، هكذا يرى عبد الله فكرى :

إذا نام فر فى دجى الليل فاسهر ... وقم للمعالى والعوالى وشمر
وخل أحاديث الأمانى فإنها ... علالة نفس العاجز المتحير

ولن تحط الأحداث من قدر رجل عالى الهمة كحمود صفوت الساعاتى إذ يقول :

ماذا تريد الحادثات من امرئ ... من جنده الشعراء والأمراء
دعها تعد كما تريد شباكها ... فلربما علقت بهـا العنقاء

ومنهـا :

أتحط قدرى الحادثات وهمتى ... من دونها الريخ والجوزاء

ومنهـا :

أنا والمعـالى عاشقان وطالما ... وعد الحبيب فعاقـه الرقباء

ويلتقى الشيخ طنطاوى جوهرى مع الساعاتى فى أن الأول عاشق المالى والآخر محب المعالى . وكذلك يلتقى مع عبد الله فكرى فى التوسل إلى المعالى بسهر الليالى ، وإن كان يربى عليهما بالتحليق إلى آفاق أسمى وأرجاء أرحب ، يقول :

محب المعـالى فى معاليـه يسهر
وذو الشوق فى العلياء يصبو ويصبر
ألا إنما المجـد المؤثل والذى ... بأن تشربوا للعلا وتشمروا
ولا تقتصر إن رمت عزا ورفعة
على الرتب الدنيـا فنفسك أكبر
فسافر لنيل المجـــد فى كل فدفد
ولو كانت الأسـفار بالحتف تسفر
هى النفس فلتصرف عنان جوادها
إلى قـة الأفلاك إذ هى أجـدر
وخاطر ببذل الروح فى كل صولة
فنقد المنايا فى المنى ليس يكبر
ولم ينل العلياء من خار عزمه
إذا نابـه أمر يـذل ويضجر

وهو القائل :

أف لمن نام والعليـاء ترمقه ... كم حسرة تعتريه حين يختطف

وقال كعب بن سعد الغنوى لابنه :

اعمد لما تعلو فما لك بالذى ... لا تستطيع من الأمور يدان

نرى من هـذا كيف أن معالى الأمور شغلت الشعراء قديما وحديثا ، ولئن اختلفوا واتفقوا على وسيلة إدراكها ، فـا ذلك إلا دليل كبير على الحيوية الإنسانية فى الشعر العربى ، والارتفاع بالنفس الخبيرة المجربة من التقليد ، فإذا كل واحد يختط سبيله إلى الملا حرا من كل قيد ، مما يجعل للشخصية العربية الشاعرة أصالة وثقافة ممتازتين

وليس أدل على هـذا من عرض مواطن القوة عند شاعرين

بينهما من الزمن ما يكاد يقارب الألف من السنين . وهما المتنبي والبارودي :

أما المتنبي فقد تشربت نفسه المعالي في كل أمر حتى لا يطالعنا من شعره بيت إلا بالمعاني الخالدة من مغامرة وسماحة وعلو همة وكبح جماح . يقول :

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم
والله إني لأخو همة ... تسمو إلى المجد ولا تفتر
لا تنكري عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالي
ودهر ناسه ناس صغار ... وإن كانت لهم جثث ضخام
وما أنا منهمو بالعيش فيهم ... ولكن معدن الذهب الرغام
أي محل أرتقي ... أي عظيم أتقي
وكل ما قد خلق الله ... وما لم يخلق
محتقر في همتي ... كشعرة في مفرق
لا أترتب إلى مالم يفت طمعا ... ولا أبيت على ما فات حسرانا
في سعة الخافقين مضطرب ... وفي بلاد من أخشاها بدل
وترى الفتوة والمروءة والأبوة ... في كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتي لذتي ... في خلوتي، لا الخوف من تبعاتها
وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام
من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت إيلام
ذل من ينبط الذليل بعيش ... رب عيش أخف منه الحمام

ولا شك أن هذه الأبيات المختلفة وزنا وقافية وقصيدا إنما تنتظم كلها في عقد فريد للمتنبي ، لا بأس من أن نطلق عليه « عقد المعالي » ، لأن عمدة الشعراء بتجاربه في الحياة وتأملاته في المعالي إنما يشغل سمع الزمن ، مهما تغيرت النظرات ، كما أنه شاعر إنساني درج عاليا في سلم النشوء والارتقاء إلى أعلى القمم

وهل من المعقول أن نجد تناقضا بين نفسية البارودي وحياته ، حين نقارن بين البواعث والآثار . وهو الشاعر الفارس الوزير ، ورئيس الوزراء ، بل وهو الذي نفي بسبب الثورة العرابية التي انتقدت نيرانها من مشاعل الوطنية مما يفخر به شعب أبي مترفع كالشعب المصري الذي أطلع أمثال البارودي رب السيف والقلم . قال :

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة ... ترد لهام الجيش وهو يمور
إذا سرت فالأرض التي نحن فوقها ... مراد لمهري والمعاقل دور
فلا عجب إن لم يصرني منزل ... فليس لعقبان الهواء وكور
همامة نفس ليس ينفق ركابها ... رواح على طول المدى وبكور
معودة ألا تكف عنانها ... من المجد إلا أن تتم أمور
لها من وراء الغيب أذن سميعة ... وعين ترى ما لا يراه بصير
وأصبحت محسود الجلال كأنني ... على كل نفس في الزمان أمير
إذا صلت كف الدهر من غلوائه ... وإن قلت قصت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمة ... لها كوكب تنجم الضياء منير

وقال :

وإني امرؤ لولا الوثائق أذعنت ... لسلطانه البدو المغيرة والحضر
من النفر الغر الذين سيوفهم ... لها في حواشي كل داجية فجر
إذا استل منهم سيد غرب سيفه ... تفزعت الأفلاك والتفت الدهر
لهم همم مرفوعة ومعاقل ... وألوية حمر وأفنية خضر
ونار لها في كل شرق ومغرب ... لمدرع الظلماء ألسنة حمر
تعد يدا نحو السماء خضيبة ... تصافحها الشعرى ويلثمها النفر

ويقول :

وما بي من فقر لدنيا وإنما ... طلاب العلا مجدو إن كان لي مجد
ومن كان ذا نفس كنفسي تصدعت ... لعزته الدنيا وذلت له الأسد

ويقول :

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ... ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهم إذا ما ترجحت ... به سورة نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفس أبية ... لها بين أطراف الأسنة مطلب
لها غدوات يتبع الوحش ظلها ... وتغدو على آثارها الطير تنعب
همامة نفس أصغرت كل مأرب ... فكلفت الأيام ما ليس يوهب
ومن تكن العلياء همة نفسه ... فكل الذي يلقاه فيها محبب
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة ... لدى بدا أفضى لها حين ينضب
أسير على نهج يرى الناس غيره ... لكل امرئ فيما يحاول مذهب

الكلام صفة

محمد محمود زيتون